٥ ـ هما واهلهما

كان اهل صلاح الدين عوناً له في تأسيس دولته وحروبه وهم كثيرون منهم خمسة اخوة ولاخيه سيف الدين العادل تسعة ابناء غير ابناء اعمامه وكلهم كانوا ينصرونه . وقد خلف عند موته سبعة عشر ولداً ذكراً حكم منهم خمسة . واما ريكاردوس فكان لسوء تصرفه قد اغضب اهله وفي جملتهم اخوه يوحنا . وما زال هذا عدوًّا له الى يوم وفاته فخلفه على العرش وقد فرح بموته مع انه مات قتيلاً . على حين ان صلاح الدين مات على فراشه واهله حوله وقد بكوه بكاءً مرًّا وتمنوا لو يفتدونه بالارواح

عجائب المخلوقات

الضفدع الحاضن

الضفادع انواع كثيرة منها نوع يسمونه الضفدع الحاضن او المولّد لغرابة الطريقة التي يتوالد بها . وهو ليليٌّ يختبئ نهاراً في ثقوب الارض او بين الصخور ويسرح في الليل . واذا جاء فصل التوليد (من ابريل الى اواسط الصيف) يكثر نعيق الضفادع كما هو مشهور . وتضع الانثى بيضها بشكل سبحة عدد حباتها من ٢٠ — ٦٠ حبة . والذكر يحضن الانثى في اثناء وضع البيض حول خصرها فتقع البيوض بين ارجلهما فيعالجها برجله حتى تجتمع على مؤخر ظهره كما ترى في الشكل

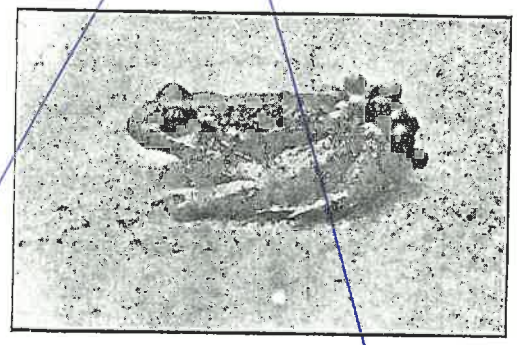

الضفدع الحاضن يحمل البيض على مؤخر ظهره

ثم يذهب الى مختبأ تحت الارض لا يخرج منه الا لطلب الطعام . وبعد شهر يفقص البيض عن صغار الضفادع وقد تم تكونها

Al-Hilal, Vol. 22, no. 9 (1 June 1914), pp. 653-659

Mufarrij, Tawfiq "Why I Left My Husband"

لماذا تركت زوجي

رأيتها امس في شوارع نيويورك وكنت قد تركتها منذ خمسة اشهر في مدينة بيروت وقفت أتأمل ذلك البياض الناصع وعليه مسحة من الاصفرار تزيده رونقاً وجمالاً . فخلتها من اولئك الايطاليات اللواتي سماهن احد شعراء اللاتين بنات الملائكة ـ لكنها فتحت فاها وقالت بصوت خافت : ألم تعرفني ؟

فاجبتها : اسما ! ـ انت في نيويورك ! ـ ما الذي اتى بك الى هذه البلاد وكيف تركت بيروت ؟

فاغرورقت عيناها بالدموع ولم تتكلم

وكانت السماء تمطر مطراً خفيفاً فقلت لها لا تبكي يا اسما فالسماء تبكي عنك ـ ثم اخذتها بيدها فدخلنا مطعم رجل سوري في شارع واشنطون

ما الذي كان يدور في دماغي ذلك الحين ؟ الفكر ـ الذي بلحظة واحدة كما وصفه هوميروس يطوف الشرق والغرب ـ كان يتردد بين بيروت ونيويورك ليقابل حياة المرأة التي عرفتها في المدينة الاولى مع المرأة التي اراها امامي الآن

اين رأيتها لاول مرة ؟ ذلك ما لا اذكره ـ لكن لا ـ رأيتها في بيت ابيها وكانت صغيرة بكل ما في الطفولية من الجمال والوداعة ـ ورأيتها في المدرسة قدوة رفيقاتها ومثالاً حسناً لمن يحيط بها

واين رأيتها ايضاً ؟

في بيت زوجها وقد ذهبت لزيارتهما ـ وكان جورج جالساً بجانبها يلاعب باصابعه شعرها الاسود الطويل . فوقفت بالباب لا اتجاسر على الدخول لئلا اشوش ذلك الهدوء او ازعج تلك السكينة . وقد شعرت من ذلك الوقت بمعنى حب النفس للنفس او انسكاب الروح في الروح . فخلت السعادة ـ تلك النعمة التي يفتش عنها مفكرو العالم ـ خاتمها مستقرة في زوايا ذلك البيت بل كدت اراها مخيمة فوق الهدو والسكينة تنيرها ابتسامات تلك المرأة التي جعلتني في تلك الدقيقة احتقر كل ما في هذا العالم من سرور ولذة وسعادة وهناء امام جمال الحب الحقيقي الذي ينتج عن الاخلاص المتبادل بين الزوج والزوجة . فتغير نظري في هذه الحياة اذ ابصرتهما كانهما جزءان منفصلان عن كل مَن في العالم . واحترمت الزواج احترامي ارقى سنة وضعها الله في ابنائه . وعظمت

في عيني العيشة العائلية المقدسة . وشعرت ان الغنى والمجد والجاه والعظمة بل كل اباطيل هذا العالم التي تشتهيها نفس الانسان البشرية لا تعادل ابتسامة واحدة من زوجة عاقلة امينة . تلك آخر مرة ابصرت بها اسما . وها انا الآن أراها تائهة في شوارع هذه المدينة فاين ما حسدتها لاجله وما الذي جرى لها ؟

وكأنها شعرت بما يجول في خاطري فتلفظت بكلمات افلتت من بين شفتيها . فاجبتها قائلا « كلا اني لم اتعجب من وجودك في نيويورك وان كان ذلك يدعو الى العجب . اذ ربما قضت الاحوال عليك بذلك »

فاعادت كلماتي «الاحوال قضت عليك بذلك» . كأنها آلة ميكانيكية تعيد ما تسمعه

« نعم ! الاحوال ؟ ألسنا جميعاً عبيداً للاحوال — أليس كل ما نفعله مقيد بما فعلناه وما اوجده لنا المحيط الذي وجدنا فيه . انت تريد ان تعرف لماذا انا في نيويورك اما انا فاحب شيء لديَّ ان لا يراني احد اعرفه . لكنني التقينا فاسمع لاشرح لك :

« بعد ان تزوجت بثلاثة اشهر ابتدأت اعرف زوجي — ذلك امر بسيط تعرفه نساء الشرق على العموم . وكنت احب جورج واكاد احسب جمال نفسه يوازي جمال وجهه . تزوجته وانا اعرفه منذ زمن طويل . لكنني عرفت بعدئذ اني لم اكن اعرف منه سوى اسمه وجسمه . وقضيت الاسابيع الاولى معه بهدو بال وراحة ضمير وكنت احسبنا في سعادة لا ألوم الناس اذا حسدونا عليها

« وحدث ان جورج غاب عن البيت مرة ولم يرجع قبل منتصف الليل . ولم اعاتبه لئلا تقع الغاطة الاولى بيننا . لكن واأسفاه — ان العادة تأصلت فيه بوقت قليل فكان اذا تناول العشاء حمل عصاه وخرج من البيت . واخذت افكر في كيف افاتحه دون ان امس شعوره . وتوهمت ذلك ناتجاً من عدم معاطاته عملاً . فجلست ذات مساء بجانبه وحادثته عن عمل يباشره واقنعته انه لا بد من استثمار المال الذي نملكه والا انفقناه بوقت قصير مهما كان كثيراً . واظهر ارتياحاً لكلامي لكنه لم يفعل شيئاً . مضى العام الاول وجورج على حالته لا يجد سروراً سوى خارج البيت . وقد رزقنا الله غلاماً في تلك السنة فاستبشرت به خيراً وحسبته رابطة جديدة بيننا

«وجاء صيف تلك السنة بحرّ شديد فغادرنا المدينة الى الجبل وهناك عرفت حقيقة زوجي . هناك ابصرت جورج على طاولة القمار يعاقر الخمر ويحسب ذلك من ابسط ما يفعله — ان جورج الى ذلك الحين كان لا يزال في الدرجة الاولى من مرض السل النفسي فابتسم لي اذ رآني ثم استغرق في الضحك لما شعر اني استغربت عمله —

ان الطبيعة الانسانية لا يمكنها ان تقنع الانسان بغلطه . واغرب من ذلك انها ترينا الغلط في غير مكانه . ان جورج اختصر بوصوله الى النتيجة ونسب استغرابي عمله لسذاجتي . فسكتُّ وعدت في ذلك المساء الى البيت بنفس كئيبة وجلست وانا اشعر انني زوجة مقامر قد يضيع كل ما يملكه بدقيقة واحدة . فهالني الموقف واعملت الفكرة في طريقة احول بها بين زوجي وبين الهاوية التي فتحها امامه . وفاتحته مرة في الامر فضحك مني ولم يشأ ان يسمع كلامي

« وانقضى الصيف فعدنا الى بيروت . ومرت اشهر عديدة وجورج يزاول العمل الذي خصص نفسه به الى أن غالبه النحس فخسر مبلغاً وافراً من المال . وعرفت بالامر فجلست في ذلك المساء انتظر رجوعه الى البيت . وعاد في آخر الليل ورائحة الخمر التي تعاطاها ليقتل بها همومه تملأ الهواء حوله . ولم اعاتبه بل صبرت الى صباح اليوم التالي فسألته فانكر . واعترف اخيراً بالخسارة التي ألمت به ووعدني انه لن يعود الى مثل ذلك . فاريته كيف يستحيل عليه تتميم وعده ان لم يجد عملاً يتعاطاه . كان جورج من الذين يقتلون اربعاً وعشرين ساعة في اليوم عبثاً . وانشأ تجارة صغيرة بعد مجادلة عنيفة فلم يمض القليل حتى اقفل شغله واضاع رأس ماله . ثم عاد الى القمار والخمر

« وأراد الخروج ذات مساء من البيت فجلست بجانبه وأريته كيف اتحمل بعاده بصبر وثبات . والقيت رأسي على يده فقباني في جبيني . وقلت له لماذا سلوتني يا جورج وهل يطاوعك ضميرك ان تتركني كل مساء وانا وحيدة منفردة في هذا البيت ؟ أليست الالفة العائلية هي السعادة التي يطلبها الزوجان في هذا العالم ؟ فتعال نتمتع بتلك السعادة واذا شئت فعندي كتاب عن الحياة العائلية اقرأه لك ولا اشك انك تسر بسماعه كثيراً . وكم سررت حين رأيته اقتنع بكلامي . واخذت بالقراءة لكنني اسفت كثيراً لما شعرت بالملل الذي استولى عليه بسرعة غريبة وكنت اراه يكاد يتأفف من الحالة التي هو فيها

« وخرج في اليوم الثاني من البيت قبل ان يعطيني فرصة لاقنعه بالبقاء . وكانت تلك العيشة قد اثرت تأثيراً غريباً في اخلاقه . فاصبح ضيق الخلق . ضيق الصدر عصبي المزاج . شديد التأثر من ادنى حركة لا تلائم طبعه الجديد . كان يتألم من طفله اذا بكى . يتشم اذا سمع صوت حركة بسيطة . وقد يطارد الذبابة اذا وسوست داخل البيت

« خرج من غرفته ذات يوم وترك قلمه الحبري على الطاولة وعاد فوجده على الارض فاستشاط غضباً ولم يجد امامه سوى طفله فانهال عليه بالضرب حاسباً اياه فعل

ذلك . وكان الطفل يبكي متنهداً وبعد ان اشبع طفله ضرباً خرج . وفتشت عن الحقيقة فوجدت الطفل بريئاً والخادمة على غير انتباه منها اوقعت القلم فانكسر

« وتغير جورج تغيراً هائلاً في بحر تلك السنة . واكثر من المقامرة فتراكمت عليه الديون وتضاعف شربه فضعف عقله وجسمه . واصبح يرى كلامي معه اثقل من الجبال على رأسه . ولم يعد في طاقتي سوى سكب الدموع فاذرفت كثيراً منها . وكنت لا ازال املك قليلاً من المال فاتى مرة يطلبه فلم اجبه الى ذلك فغضب وخرج

« وعاد بعد ثلاثة ايام فلم اعرفه . وكان جمال وجهه قد اصبح بارداً مخيفاً . فوقفت ويداي مرفوعتان في الفضاء . لا الى الله استغيث به . بل الى زوجي اتضرع اليه ان يشفق عليّ ويعود لحظة واحدة الى عقله لعله يدرك الحالة التي هو فيها

« وكأنه تأثر من ذلك المشهد فاقترب وعانقني . وبكى معي فخيل لي ان شروره تتساقط من عينه بهيئة الدموع . ورفعت بصري ثانية نحوه فقرأت التعاسة الحقيقية مكتوبة باحرف غليظة وراء تجعدات جبينه . وراء الاصفرار المستقر في تينك العينين اللتين اضاعتا بريقهما . فاشفقت على زوجي . شعرت بالناموس الازلي الذي يربطني به الى الابد . بل شعرت بضعف النفس البشرية التي لا يدرك حقيقتها سوى انكسار نفس بشرية مثلها . ثم ضممت ذراعيّ وانا تائهة الفكر فشعرت بهما تحيطان بجسم ذلك الزوج التائه النفس . ولم اجد واسطة في السماء او الارض تعيده اليّ . ثم رميت من شفتي قبلة خلتها تحرق جبينه . وافلت جسمه من بين يدي وقلت له والآن يا جورج لقد حان لنا ان نفترق الى الابد ان شئت ان تبقى كما انت

« وبكى جورج فبكيت معه . وتعانقنا فكانت دموعنا تجري مزيجاً الى الارض . ثم اخذ يدي فاجلسني وجلس بجانبي وقال نعم يا اسماء لقد اسأت اليك ايتها المرأة العاقلة وجعلت كل دقيقة من حياتك الزوجية عذابا مستمرًّا . . فما الذي ترتجينه مني ايتها المسكينة ؟ ابتعدي عني فذلك اقل ما استحقه . اتركيني . . فانا انما تزوجتك لاجعل حياتك حلماً ذهبياً . وها انت الآن لاتعرفين من الحياة الزوجية سوى الشقاء والهموم . فاتركيني يا اسما واحتقريني وثقي انك بذلك تحتقرين مقامراً فقيراً لا يستحق ان يكون زوجاً . ان القوة التي كان يمكنني بها ان اجعلك امرأة سعيدة قد انفقتها اشباعاً لرغائب نفسي . ولا املك شيئاً بعد الآن لاجعلك سعيدة واوشح حياتك اليومية بالراحة والهناء

« ثم اخذ يشكو لي فقره وضيق الحال التي وصل اليها فاسفت على شبابه . اسفت

على زوجي . على المال الذي انفقه على ايام الشباب التي يقتلها بدون رحمة . ثم القيت رأسي على صدره وقلت له : لا يا جورج — لا تغلط — لا يزال في يدك اقوى القوى التي تجعاني زوجة سعيدة . اعطني قلبك فذلك ما اطلبه . اخلاصك ومحبتك هما النعمة التي تجعاني في هناء وراحة . فلماذا تشكو اليّ فقرك وانا لا اطلب غناك ؟ فكل ما تملكه لا يجعاني سعيدة وانت تبخل علي بواجبات الزوج الحقيقي نحو زوجته . ان غناك لا يزيد محبتي لك وفقرك لا يضعفها . فانا احبك انت يا جورج . . ولا اطلب الغنى . فليس الغنى ضرورياً للسعادة بل الابتعاد عن الفقر . والغنيُّ — كما قال علي بن ابي طالب — من استغنى عن الناس والفقير من افتقر اليهم . واذا كنت لاحظت تدقيقي عليك فلاني اريد ان احول بينك وبين الحالة التي تدفع نفسك اليها — حالة كثيرين من الناس — حالة الفقر المستقر وراء المظاهرات الخارجية التي لا معنى لها . لا يقدر الانسان ان يغش كل الناس كل الوقت

« ان الله جعلك غنياً يا جورج وانت تبذل جهدك لتجعل نفسك فقيراً

« ان يمين الفقر ممدودة فوق طريق المستقبل الذي تفتحه بوجهنا . فابتعد عن الفقر — ابتعد عن الدَّين . تذكر ان الريال الذي انفقته امس والريال الذي تنفقه اليوم قد يكونان غداً وسيلة لراحتنا وراحة اولادنا بعدنا

« الفقر يحرم الاولاد من التهذيب — فهو الجهل بعينه

« الفقر يحرم الاولاد من الطعام الجيد الكافي والاعتناء التام . فهو المرض العضال

« الفقر يسلب الانسان شجاعته . يقطع آماله . وغداً . غداً تقف كما وقفت الآن وتقول لي « انفقنا كل ما نملكه » فنحن في تلك الساعة فقراء واولادنا تعساء جهلاء . اذ ذاك تدرك ياجورج ان تلك الاثواب الجميلة كانت وسيلة الاستهزاء والاحتقار في اعين الناس الذين يعرفون ان ثمن ذلك الثوب هو فوق ما يمكن ان تنفقه

« لكن واسفاه . ان جورج الفتى العاقل اللطيف الحساس أهوغير جورج الذي يسمع كلامي ولا يبالي به . ان الخمر وان لم تدفع مدمنها الى السكر فانها تنتقم منه بطريقة اشد وافظع . تميت نفسه وتقتل احساسه

« ومرت الساعات والايام وجورج هو هو . وجلست بجانبه مرة فقلت له طبعك غريب يا جورج . انك تدرك الحالة التي انت فيها وتعتقد خطأك ومع ذلك فلا يمرُّ يوم دون ان تقذف نفسك في طريق المحرمات . انت زوج فكيف يحق لك ان تترك زوجتك كل مساء تقاسي ألم التفكير في ما تفعله وانت بعيد عنها ؟

« وماذا اجاب . نسب كل ذلك الى القضاء . الى الحظ . ومن العجيب ان الكسالى فقط يؤمنون بالحظ . وعبثاً حاولت اقناعه ان القضاء الذي يؤمن به كثيرون لم يحكم علينا بالسعادة أو الشقاء بل ترك لنا الارادة لنعمل ونجتهد

« وضاقت الحيل بي ونفد صبري — كنت اصرف النهار بالبكاء فاذا جاء الليل اصبحت فريسة للافكار المؤلمة التي تمثل لي حقيقة زوجي . بل كثيراً ما كان طفلي يغمض عينيه وهو مضطجع على ذراعي فاركع على ركبتي استغيث بالله السماء ان يمس قلب زوجي رحمة باطفاله . لكن وا أسفاه اين هو الله ؟ انه لا يسمع دعاء بني البشر دائماً

« هذه حالة جورج وقد اسمعتك ابسط فصولها . واخيراً تأكدت ان جورج يظل كما هو طالما كنت معه . واصبحت اشعر ان وجودي بقربه ضرر له فعمدت الى الابتعاد عنه — في مكان يمكن للمرأة ان تكسب قوتها بعرق جبينها — ولم اجد خيراً من هذه البلاد الجميلة التي لا تموت فيها النفس القوية ولا يخس بها النشاط والاجتهاد حقهما فجئتها لاعمل — لاشتغل لعلي اجمع ما يكفل تهذيب ولدي في المستقبل . هذا اذا كان ابتعادي عن جورج لا يؤثر فيه ليدرك حقيقة مركزه فيلهمه الله الى ما به خيره فيحافظ على القليل الذي لا يزال بين يديه رحمة بالطفلين اللذين تركتهما تحت عنايته » اه

وكانت اسما تتكلم والعبرات تتدحرج على وجهها فوقفت امامها صامتاً لا أتجاسر ان اتحرك لاني اعلم ان الذي اساء الى هذه الفتاة المسكينة هو رجل ايضاً . ورفعت بصرها نحوي فرأت الدموع تجول في عيني فقالت لي « وما الذي يبكيك انت ؟ » قلت لها « ومن يسمع حديثك يا اسما ولا يبكي — انا لا ابكي لاجل مصائبك فالمصائب التي تصيب الانسان ولا تقتله هي كما قال نيتش قوة جديدة له . ولا شك ان هذه المصائب كانت قوة جديدة لك فدفعتك الى هذه البلاد . فانا اعجب بقوة نفسك وهمتك . انما ابكي العاطفة الانسانية ان تصل الى هذا الحد من الدناءة والخساسة كما هي الحالة مع جورج

« انت كنت زوجة مخلصة امينة واحببت زوجك . لكنك لم تعرفي كيف تحبينه ولم يكن لمحبتكما اساس ثابت : اسمعي يا اختي

« المحبة الحقيقية يجب ان تبتدىء بعد الزواج لا قبله . المحبة الصادقة يبتدئ نموها في قلب الزوج حين يشعر باخلاص الفتاة التي وضعت نفسها وحياتها بين يديه . ومحبة الزوجة تبتدئ حين تشعر باخلاص وامانة الزوج الذي يكرس حياته لاجلها فيجاهد في هذا العالم ويجد ويركض ليقدم لها المعاش والراحة عن طيبة خاطر ورضى نفس

« ان المحبة التي تنشأ قبل الزواج نافعة احياناً . لكن اساسها نظرة حلوة او ابتسامة

جميلة . فتهدمها اول زوبعة بعد الزواج كما حدث في المحبة المتبادلة بينك وبين زوجك

« انت احببت جورج حالما ابصرته . انت احببت الجمال على وجهه وعشقت الوداعة في حديثه دون ان تبحثي عن مصدرها الحقيقي — واذا شئت ان تعرفي ذلك فاسمعي لاخبرك حقيقة هائلة : ان الجمال الذي ابصرته على وجه زوجك انما هو جمال الخمر يا اسما . والوداعة التي عشقتها في حديثه كانت وداعة المقامرين يا اختي

« ان زوجك كان مقامراً قبل ان تزوجته وقد عاقر الخمر مراراً قبل ان عرفته — والمصائب التي نسميها آفات الشباب لا تتسلط على الرجال بعد الزواج بل قبله . فلماذا لم تحذري ؟ لماذا لم تدرسي اخلاق الرجل الذي جعلت نفسك شريكة حياته ؟

« لا انكر ان زوجك كان — كاكثر شبان هذه الايام — لا يستحق ان يكون زوجاً انما انت اخترته . والآن انت وحدك تحملين العذاب الذي اوصلك اليه . ان الاب الذي لا يتألم من بكاء طفله ما خلق ليكون زوجاً . وحرام على الام ان تدعوه اباً فما هو الا رجل فقط — فلا تحزني يا اختي على تركك ذلك الزوج — ان روحك فارقت روحه قبل ان فارق جسدك جسده . ولانت في نظر الحقيقة وفي عيون العقلاء اشرف من الوف النساء اللواتي تفارق نفوسهن نفوس ازواجهن ويلتصقن باجسادهم الى الابد

« فلا تخجلي يا اسما . وان احتقرك ابناء الناس فشرائع الله العادلة تباركك . وان تكوني بعيدة عن زوجك فذلك خير من ان تكوني واياه كاكثر الازواج والزوجات — اعداء يحترمون بعضهم بعضاً امام الناس فقط — ولا تبالي بكلام الناس الذين يجهلون كيف يجب ان تكون العشرة العائلية المقدسة فيعتبرون هجر المرأة زوجها اعظم جريمة دون ان يبصروا الرجل الذي يجعل البيت فندقا والمرأة خادمة يراها في ساعات الطعام فقط . ولقد احسنت بمجيئك الى هذه البلاد . فاميركا واسعة بل العالم كله مفتوح في وجه النفس النشيطة التي لا ترضى المعيشة في قفص مقصوصة الجناح مطأطأة الرأس . فكوني اول امرأة تثور على زوج باطل . وقد يلعنك ابناء هذا الجيل لكن ابناء الاجيال الآتية يباركونك . ولا تخافي ان تذكري حقيقتك للناس فقد مضى الزمن الذي اذا تكلمت به المرأة لطمتها الهيئة الاجتماعية على فمها لتسكتها الى الابد . اني آسف يا اختي ان يكون نصيبك من الحياة نصيب القلعة التي يحارب الجندي في سبيلها حتى اذا امتلكها وجدها قاعاً صفصفاً . فلا تبكي . فمصائب العالم وان تكن عظيمة فالقلوب الكبيرة اوسع منها »

ثم اخذت يدها فودعتها وبين شفتيّ ابتسامة الاحتقار للحياة العائلية في الشرق — حياة الزوج والزوجة . وبعبارة ابسط — عيشة البيت

توفيق مفرّج